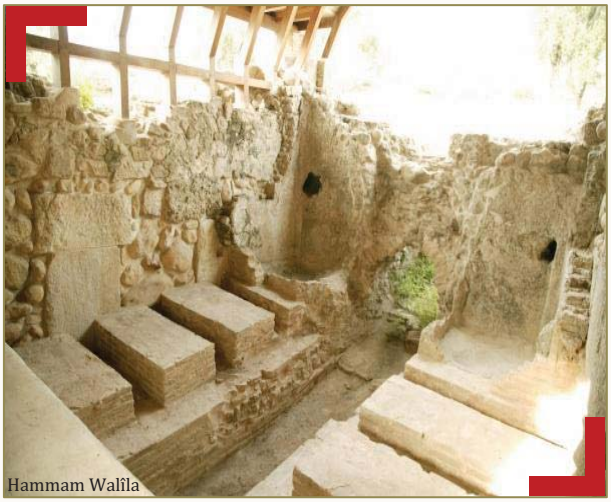
Hammam Walîla

الفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الاثرية

د. سيدي محمد العيوض

أستاذ التاريخ القديم
المدرسة العليا للأساتذة
الرباط – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سيدي محمد العيوض، الفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الأثرية.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ١٠٥ – ١١٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 – 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

تشير الحفريات الأركيولوجية إلى أن تاريخ مدينة وليلي (Volubilis) الأثرية المغربية يعود على الأرجح إلى القرن الثالث ق.م، فهي بوابة لدخول الماضي، عاصرت الحقبة ما قبل المرحلة الرومانية وما بعدها، وصولاً إلى المرحلة الإسلامية، في منطقة شمال إفريقيا، حيث ما زالت مآثرها العمرانية شاهدة بشموخها على حضارة عمرت لقرون طويلة في المنطقة. توجد هذه الحاضرة التاريخية على بعد ٣ كيلو مترات من مدينة "زرهون" أولى المدن الإسلامية في منطقة شمال إفريقيا، التي اتخذتها الدولة الإدريسية بقيادة إدريس الأكبر عاصمة لها، وغير بعيد عنها تقع مدينة "مكناس" (جنوب شرق الرباط) بحوالي عشرين كيلومترًا. تعتبر وليلي من أهم المواقع الأثرية بالمغرب المعروفة والمقصودة من طرف الزوار الأجانب والمغاربة، وتعد واحدة من أشهر الحواضر القديمة في حوض المتوسط، كما تم تسجيلها سنة ١٩٩٧ ضمن التراث الإنساني العالمي.

تصل المساحة الإجمالية للمدينة، كما يحدد ذلك السور الروماني، إلى ما يناهز ٤٢ هكتارا، لم يكتشف منها حتى الآن، منذ بداية الحفريات الأثرية فيها سنة ١٩١٥، إلا النصف وما يزال النصف الآخر تحت الأنقاض وما زالت أعمال البحث مستمرة. ويتألف موقع وليلي الأثري من بنايات ومآثر منها ما يرجع إلى الحضارة المورية التي خلقها السكان المحليون، ومنها ما يعود إلى الفترة الرومانية، ومنها ما يشهد على فترات متأخرة، كالحقبتين المسيحية والإسلامية. وتعرض صفحات الدراسة للفترة الإسلامية في وليلي من خلال إشارات المعطيات الأثرية، التي تفيد بأن المدينة استقر بها المسلمون على الأقل خلال أربعة قرون من دخول إدريس الأول.

مُقدّمة

يقف الدارس لتاريخ المدن الإفريقية، خلال هذه المرحلة، على فترات ازدهار وتطور متنوع من منطقة لأخرى بل من مدينة لأخرى. لقد سجل عدد من الباحثين أن الفتح الإسلامي يمثل قطيعة في تاريخ هذه المدن، مع الإشارة إلى أنها عرفت ازدهارًا لم يؤثر فيه لا الفتح الإسلامي ولا الغزو الهلالي.[١] وإذا كان الازدهار هو ميزة أغلب المدن الإفريقية فإن ما نعرفه عن مدينة وليلي، من خلال ما كشفت عنه الحفريات، يخص ترميمات لبنايات المدينة الرومانية في مرحلة أولى وتعديلات في مرحلة لاحقة قبل مرحلة تقلصها وراء السور المتأخر. وإذا كانت التحولات تنسحب على أغلب مدن شمال إفريقيا، فبالنسبة إلى وليلي يبقى المشكل الأركيولوجي المطروح منحصرًا في صعوبة التأريخ بكيفية دقيقة لجل مكونات سكن هذه الفترة المتواضع. ومع ذلك فمن المؤكد أن أربعة قرون من تاريخ المدينة كلها تعود للفترة الإسلامية،[٢] كما توضح ذلك عدد من النصوص التاريخية، واللقى الأثرية، وعلى الخصوص النقود.[٣]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بنايات الفترة الإسلامية في وليلي

تبقى المعلومات المتوفرة لدينا بالنسبة لبنايات الفترة الإسلامية في وليلي قليلة بالمقارنة مع ما نعرفه عن بنايات الفترات السابقة. من المحتمل أن ذلك يعود لأسباب معرفية مرتبطة بعدم وجود متخصصين في هذه المرحلة، نظرًا لكون البحث كان منصبًا في البداية على الكشف عن كل ما هو روماني، لما لذلك من علاقة مع الإيديولوجية الاستعمارية السائدة آنئذ.[٤]

لقد استقرت ساكنة وليلي خلال هذه الفترة وفي ظروف يصعب تحديدها، في الجهة الغربية من الموقع خلف ما عرف بسور وليلي المتأخر.[٥] ونظرًا للقلة النسبية للمعطيات المرتبطة بهذه المرحلة من تاريخ المدينة، زد على ذلك الوضعية المتردية التي وجدت عليها هذه البنيات، كل هذا حتم علينا أن نتبنى طريقة معينة في التعامل مع هذه المكونات تعتمد على وصف البنايات الموجودة خارج السور المتأخر، أي ما اعتبر المدينة "المصغرة"، ثم بنايات هذه المرحلة خارج السور أي في مجال المدينة الرومانية السابقة، وبعد ذلك المقابر للإحاطة بتطور المدينة خلال هذه المرحلة.

تضم الجهة الغربية من السور عددًا من البنايات، تتكون من مواد غير متجانسة فهي في أغلبها مواد معادة الاستعمال، ويوجد جلها في وضعية متردية، وهذا ما جعل تحديد وظيفتها أمرًا مستحيلاً. كما أن أغلب أبواب سور القرن الميلادي الثاني الذي كان يحيط بمجال المدينة الرومانية، لم يعد لها نفس الدور الذي كان لها في السابق، إذ أغلقت بمواد معادة الاستعمال، الشيء تولد عنه سكن خاص في هذه الجهة. ففي الجزء الذي اصطلح على تسميته في السابق بالحي العربي أو "دوار إسلامي" ينتشر سكن استعملت في بنائه مواد معادة الاستعمال، عبارة عن مواد مجلوبة من البنايات العمومية في المدينة الرومانية، نخص بالذكر منها تسعة وأربعين نقيشة جنائزية وعدد من الكويسات (Cupules) الجنائزية المستخرجة من المقابر القديمة.[٦]

كشفت الحفريات في هذه الجهة عن مواد أثرية منها قناة مائية وصفت بالعربية، استعمل في بنائها مواد معادة الاستعمال خاصةً منها نقائش، أرخ لها بالفترة الإدريسية،[٧] وأجزاء من معصرة هي عبارة عن تقالة ومنضدة عصر، وبئر أسطواني لم تتمكن الحفريات من تقديم تاريخ محدد له، ويحتمل أن يعود لفترة تراجع المدينة خلف السور المتأخر خلال فترة انعدام الأمن وتوقف القناة الرئيسية - التي كانت تزود المدينة الرومانية في الجزء الشرقي- عن الاشتغال، في وقت لم يكن من الممكن التزود بالماء من الوادي القريب من هذه الجهة.[٨] من المحتمل أن هذا التجمع الذي وصف بالعربي[٩] قد تكون قبل بناء السور المتأخر، مما سيفيد أن البنايات التي يحيط بها هي الأخرى سابقة عن الفترة التي بني فيها السور، وبذلك فإن وصفه بالتجمع العربي هي تسمية فقط.

الحمامات

إلى جانب هذه البنايات المتواضعة التي يصعب تحديد وظيفتها، أزالت الحفريات التراب في الجزء الجنوبي الغربي لهذه الجهة الممتدة وراء هذا السور عن حمامات اعتُبرت في السابق بازيليكا مسيحيا، بفعل العثور على مبخرة عليها صليب.[١٠] وسيتأكد فيما بعد أن هذه البناية هي في الواقع عبارة عن مؤسسة مائية.[١١] تتكون هذه الحمامات من ساحة مبلطة وغرفة مقببة لها علاقة بالغرفتين الساخنة والرطبة اللتين أقيمتا فوق موقد، ويشمل الجانب الآخر من هذه البناية مسبح ماء بارد.[١٢] تقدر مساحة هذه الحمامات ب ٢٤٣م^2، وبذلك فهي لا تكفي ساكنة المدينة، الشيء الذي دفع ببعض الدارسين إلى اعتبارها حمامات لحي ما، يجب البحث عنه بالقرب من هذه المنشأة،[١٣] خاصةً وأن حفريات روزنبيرجي (ROSENBERGER) قد كشفت في هذه الجهة عن آثار جدران، وهو ما ستؤكده عملية المسح المغناطيسي[١٤] الذي عرفته هذه الجهة المحاذية لهذه الحمامات، فقد أبانت عن وجود جدران لها نفس اتجاه تلك التي كشفت عنها الحفريات القديمة، وعدد من قطع الخزف الإسلامي.[١٥]

شكلت هذه الحمامات وحدة متكاملة لم تغير الترميمات التي عرفتها من تصميمها الأول.[١٦] تتكون مواد بنائها من مواد معادة الاستعمال منها مثلاً قطعة مجلوبة من قوس النصر استعملت في إحدى القاعات.[١٧] بالنسبة لتاريخ هذه البناية فقد سبق لروزنبيرجي، الذي نقب فيها سنة ١٩٦٤، أن أرخ لها بالفترة الرومانية دون تحديد تاريخ البناء، غير أن مواد البناء التي تضم مواد معادة الاستعمال إضافة إلى الاستبارات التي أنجزت فيها،[١٨] قدمت نتائج تفيد عكس هذه الاستنتاجات، إذ أوضحت أنها لم تبن إلا خلال فترة متأخرة عن نهاية القرن الميلادي الثالث،[١٩] فاللقى النقدية هي عبارة عن نقود إسلامية تعود للفترة الإدريسية.[٢٠] وقد أكدت نتائج الاستبارات التي أنجزت في عدة نقط من هذه الحمامات، على احتمال عودتها للفترة الإدريسية، بل واستمرار استغلالها حتى إخلاء الموقع.[٢١]

من المعطيات الأخرى التي يمكن اعتمادها للتدليل على أن هذه الحمامات إسلامية هي التشابه الحاصل بينها وبين الحمامات الأموية من حيث عدد القاعات وكذلك تقنية التسخين.[٢٢] إجمالاً، بالإضافة إلى الطابع المتواضع لبنايات هذه الجهة خلف السور وعدد النقائش المسيحية[٢٣] التي وجدت معادة الاستعمال، فإننا نواجه بمشكل كرونولوجي يرتبط بعدم توفر أي تاريخ مضبوط لهذه الجهة، باستثناء حمامات خارج السور، إذ يظهر أنها شهدت تعاقب سكن مسيحي وإسلامي.

جامع وليلي

وإذا كانت الحفريات قد كشفت عن هذه المنشأة العمومية التي تعود للفترة الإسلامية، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمسجد الذي ورد الحديث عنه في جل المصادر المرتبطة بهذه الفترة، وتمت

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فيه مبايعة إدريس الأول "... فبايعوه بجامع وليلي... ".[٢٤] لقد أغرت مسألة التعرف على هذا المسجد عددًا من الباحثين، فقد اعتبر موريس أوزينا (M.Euzennat) البناية الدائرية في منزل البيكار مسجدًا، كما حاول البعض الآخر أن يحدده في البازيليك الروماني، معتمدًا في ذلك على الاتجاه الجنوبي، جنوبي- شرقي لهذه البناية الشيء الذي يجعله في اتجاه القبلة، وبذلك اعتبر أن مسلمي هذه الفترة قد استعملوه كمسجد.[٢٥]

هذه الفكرة المرتبطة بتحويل البازيليك إلى مسجد وردت كذلك عند ميشيل بونسيك (M.Ponsich) بالنسبة لليكسوس.[٢٦] إلا أن مثل هذا الافتراض يبقى بعيدًا عن الصواب، إذ لا نعتقد بأن المسلمين مع التطور الذي عرفته المدينة التي غصت بالسكان قد يتورعون عن إقامة مسجد، أو مساجد، ويتخذون من هذه البناية الرومانية مسجدًا. إن ما يمكن أن نقول به اليوم هو أن مسألة العثور على هذا المسجد هي موكولة للحفريات المستقبلية في الجهة الغربية.

المنازل

خارج هذا المجال الذي يحده السور المتأخر، رصدت الحفريات آثار هذه الفترة على الخصوص في حي قوس النصر.[٢٧] فمن بين البنايات التي تعود لهذه الفترة تلك الموجودة بين منزل الأعمدة ومنزل الصهريج، يتعلق الأمر بكوخ استعمل في بنائه دبش وكتل معادة الاستعمال بدون ملاط، عبارة عن بناء مستطيل مؤرخ بالفترة الإسلامية.[٢٨]

في هذه الجهة كذلك، أزاحت الحفريات في منزل الصهريج وفي الشوارع التي تحده التراب عن عدد من الأكواخ. ففي هذا المنزل جنوب الساحة المبلطة (Cour dallée) تم إقامة بنايات لها اتجاه شمالي - شرقي جنوبي- غربي، يحتوي أحد جدرانها على مواد معادة الاستعمال منها عتبة من كلس رمادي، وهي نفس المواد التي استعملت في إغلاق الباب الذي ينفتح على الباحة لجعلها ربما ملحقة مرتبطة بالبناية المستطيلة.[٢٩] لقد كشفت الحفريات في السابق عن آثار جدران تعود إلى هذه الفترة، اعتبرت من قبل بعض الباحثين "أكواخ الفترة البكواطية".[٣٠] أرخ لهذه البناية والمقبرة التي توجد في هذا المكان بالقرن الميلادي الثامن، وذلك اعتمادا على عدد من النقود التي تعود للفترة الإدريسية،[٣١] غير أن نتائج دراسة هذه المقبرة، لا تؤكد هذا التاريخ المقدم، إذ توحي وضعية اتجاه الموتى في هذه القبور بأنها مقبرة مسيحية.[٣٢]

مكنت الحفريات في منزل البيكار، من الوقوف على مرحلة عرف فيها المنزل توسعًا في اتجاه الغرب، يتعلق الأمر بمستوى سكن يعود للفترة الإسلامية يغطي مستوى يشمل قبورًا تشبه من حيث الاتجاه والبناء قبور منزل الصهريج. أرخ لهذا المستوى بالفترة الممتدة بين القرنين الميلاديين الرابع والسابع.[٣٣] وقد أفادت حصيلة البحث أن اتجاه البنيات في هذا المستوى مخالف لاتجاه المنزل.[٣٤] وبالنظر للوضعية التي وجدت عليها فمن الصعب تحديد وظيفتها، إلا أنه من المحتمل أن تطابق هذه المرحلة في كل الحي المرحلة الإسلامية الأولى.[٣٥]

كشفت الحفريات التي أجريت خلال العقدين الأخيرين بشمال هذا المنزل عن مجموعة من الغرف، متجمعة حول ساحة، يجهل ما إذا كانت تشكل وحدة أو مجموعة وحدات سكن. بنيت هذه الغرف من دبش ممزوج بتراب، وكتل معادة الاستعمال في الزوايا وفي التشبيك، ولم يتم الكشف عن أي أثر للبن ولا تراب في تغطية الجدران.[٣٦] يمكن من خلال النقود التي وجدت على أرضية بعض الغرف، وأغلبها نقود ما قبل إدريسية، التأريخ للاستقرار في هذا المستوى بالنصف الثاني من القرن الميلادي الثامن.[٣٧]

أما في منزلي الممر والفتى المراهق،[٣٨] فقد حددت آثار هذه المرحلة بالنسبة للمنزل الأول في جدارين قد يعودان لهذه المرحلة، أما في المنزل الثاني فتظهر هذه الآثار في الجزء الشمالي الغربي منه، مباشرة فوق جدران الفترة الرومانية، وهي عبارة عن جدران تظم مواد معادة الاستعمال، تشبه تلك التي توجد في منزل الصهريج، وقد أرخ لها بالفترة الإسلامية.[٣٩] وفيما يخص هذه الفترة في منزل الأعمدة، فبعد مرحلة هجر أعيد استعمال مواد بنائه لإقامة بيوت لساكنة لجأت إلى هذه البقايا. ولم تترك عملية الترميم التي عرفها أي آثار لبنيات الفترة الإسلامية، مع العلم أن وجود نقيشة مسيحية معادة الاستعمال في أحد جدرانه، تعتبر مؤشرًا قويًا على الاستقرار خلال هذه الفترة.

بقايا الفترة الإسلامية

أما خارج حي قوس النصر، يمكن رصد بعض بقايا هذه الفترة الإسلامية في الحي الجنوبي بشقيه الشرقي والغربي. فقد حددت الحفريات في السفح الشرقي بعض الجدران التي تضم مواد معادة الاستعمال وبعض اللقى الإسلامية التي يمثلها قطعة خزف عثر عليها في الاستبار الذي أنجز في الفرن ١،[٤٠] في هذه الجهة، كذلك تم طرح إمكانية وجود ساحة قرب الأفران.[٤١] ويمكن ربط وجود هذه الأفران بتوسع المدينة غربًا في وقت لم يعد فيه للسور المتأخر نفس الدور الذي كان له حين كان يقسم الموقع إلى قسمين غير متوازيين، وذلك بفعل التوسع الذي عرفته الجهة الغربية، خلال فترة ما من فترات المدينة الإسلامية.

في الحي الجنوبي الغربي، فقد كشفت آخر الحفريات عن بعض البنايات المتواضعة، تتكون إحداها من أربع غرف لها شكل طولي، يظهر على أرضية إحداها تراب مدكوك وملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدار،[٤٢] وبناية أخرى على أرضيتها كذلك تراب مدكوك ممزوج بالتراب والجير والحصى. كما مكنت حفريات هذه الجهة من التعرف على مواد لتسقيف البنايات، يتعلق الأمر بقصب وطين وبعض الحجارة.[٤٣] يُمكن من خلال بعض اللقى اعتبار الفترة المرابطية، كأقصى تاريخ لحد الآن، في الاستقرار بالمدينة.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

كل هذه التطورات التي عرفتها المدينة خلال هذه المرحلة، توضح أن انتشار السكن الإسلامي في هذه الجهة ناتج عن توسع المدينة خارج المجال الذي يحدده السور المتأخر، وذلك في اتجاه الناحية الشرقية التي شكلت خلال مدة مجالاً لاستقبال الأموات، ويتجلى هذا التطور في ندرة القبور في الجهة التي شملتها الحفريات.[٤٤]

يستفاد من كل هذا؛ أن المدينة بعد تراجعها غرب السور في مرحلة أولى، عرفت تطورًا أدى إلى توسعها في الجهة الشرقية، وهو ما يعني أن السور لم يعد له نفس الدور الذي كان له خلال المرحلة الأولى. ويلاحظ من معاينة تصميم المدينة العام، اتصال عدد من محاور هذه الجهة الغربية، وباقي المدينة الرومانية، التي استغلت كمقابر خلال فترة معينة، إضافة إلى أن هناك ربط بين هذه المحاور وعدد من الأبواب التي تخترق السور سواء منها الغربية أو الشمالية.

المقبرة الإسلامية

من العناصر الأخرى المعتمدة في تحديد المرحلة الإسلامية في المدينة، ما يرتبط بالمقبرة الإسلامية التي حددت على مساحة واسعة، وكشفت عنها الحفريات في إحدى منازل الحي الشمالي الشرقي، ليتأكد فيما بعد امتدادها الواسع على مساحة مهمة في كل الجهة التي عرفت استقرارًا رومانيًا.[٤٥] ونقدم فيما يلي جردًا للمقابر المعروفة لحد الآن، وهي مقبرة منزل المقبرة الإسلامية، ومقبرة حي التل، ومقبرة الحي الشمالي الشرقي، ومقبرة الحي الجنوبي.

ففي الحي الشمالي الشرقي تم التعرف في منزل غرب قصر غورديانوس على مقبرة صغيرة، إضافة إلى أخرى في منزل الخاتم الذهبي والمنزل بدون اسم.[٤٦] أما في حي التل فقد كشفت الحفريات عن قبرين فوق التل، أحدها من الصعب تحديد ما إذا كان مسيحيًا أو إسلاميًا، أما الثاني فقد كان قبرًا إسلاميًا باعتبار أن الميت كان ينظر في اتجاه الجنوب الشرقي أي اتجاه القبلة.[٤٧] كما أزيح التراب في السنين الأخيرة عن قبر على حائط الواجهة الغربية للوحدة السكنية (II)، ينظر في اتجاه القبلة.[٤٨]

إن هذا الانتشار للقبور يدفعنا إلى الحديث عن مقبرة واحدة تمتد من منزل غرب قصر غورديانوس إلى المنزل بدون اسم،[٤٩] بل إلى منزل أورفي وفي الجهة المجاورة.[٥٠] ونستبعد فكرة اعتبار المقبرة التي وجدت في حي قوس النصر مقبرة إسلامية. لقد أفادت المعطيات الأركيولوجية أن تاريخ هذه المقبرة مؤكد من خلال النقائش المسيحية الأربع التي وجدت في هذه الجهة،[٥١] كما سبق أن قدمت حفريات روزنبيرجي الدليل على كونها غير إسلامية، خلافًا لما زعمه بوب (J.Boube)، من خلال وضعية الموتى واتجاههم، وهو ما تأكد من خلال الاستبار الذي أنجز في أحد منازل هذا الحي، حيث تم إزالة التراب عن قبر يطابق وصفه ما ورد في تقرير روزنبيرجي.[٥٢]

تشكل هذه القبور الإسلامية وحدة تدخل في مجال هذه المقبرة الواسعة، التي تتميز بإشرافها على المدينة، الموجودة في الجزء الأسفل خلف السور الذي شكل حدًا فاصلاً بين المجالين. فهي قريبة من المدينة ومن الطريقين الرئيسين، الديكومانوس ماكسموس بالنسبة لمنزل المقبرة الإسلامية، والكاردو الجنوبي (I) بالنسبة للسفح الشرقي والحي الجنوبي.[٥٣] هذا الامتداد الواسع يعني أن المدافن كانت تشمل مجالاً واسعًا، الشيء الذي يمكن أن نعتبره مؤشرًا على الأهمية العددية لساكنة وليلي خلال الفترة الإسلامية. وتعكس النصوص الأدبية الوسيطية هذه الأهمية من خلال الإشارة إلى أن المدينة كانت قبلة لعدد من الوافدين، مما فرض التفكير في بناء مدينة جديدة تستوعب هذه الأعداد الهائلة. من جانب آخر؛ فإن الكشف عن هذه المقبرة في هذه الجهة يمكن من تحديد السكن في الجهة الغربية.

نخلص إذن إلى؛ أن المعلومات المتوفرة حول حدود المدينة الإسلامية، تفيد أنها خلال هذه المرحلة لم تكن محصورة وراء السور المتأخر بل إنها عرفت تطورًا خارج حدوده الشرقية، قد يعود لتوالي موجات بشرية مختلفة قدمت للاستقرار بوليلي. لقد أكدت الدراسات الحديثة هذا التوسع في اتجاه الشرق بكيفية واضحة[٥٤] في جل منازل هذا الحي، إضافة إلى ذلك كشفت الحفريات الأولى التي أزاحت التراب عن الديكومانوس ماكسموس، عن وجود أنقاض تعود لفترة متأخرة،[٥٥] الأمر الذي عززته الحفريات الأخيرة، بحيث أصبح من الواضح أن المدينة الإسلامية خلال فترة من تاريخها تطورت خارج السور المتأخر الذي شكل خلال فترة معينة حدًا فاصلاً بينها وبين الجزء المهجور الذي تحول إلى مقبرة مسيحية في مرحلة أولى وإسلامية فيما بعد. وقد فسر هذا الجوار بين المقابر المسيحية والإسلامية، بتوالي الاستقرار البشري على الرغم من اختلاف الديانتين.[٥٦] ويمكن مقارنة هذا التجمع السكني الذي حدد خلف هذا السور ليتجاوزه في مرحلة لاحقة، والذي لم يحدد منه سوى حمامات خارج السور الإسلامي، بسكن ليكسوس خلال هذه الفترة الذي لم يكن هو الآخر سوى تجمع سكني على ربوة تشميش، كما توضح ذلك معالم بناياته.[٥٧]

وإذا كانت البنايات المرتبطة بهذه الفترة غير واضحة المعالم باستثناء حمامات خارج السور، فما هو حظ المواد الأثرية في التعريف بهذا التطور؟

النقود ومساهمتها في تأريخ المرحلة

تمتد النقود التي وجدت أو ضربت في وليلي على فترة زمنية تقع بين (١٧٣هـ/٢٠٩هـ) و (٧٨٩م/٧٩٠م - ٨٢٤ م ٨٢٥ م)، أي أنها تغطي فترة زمنية تمتد على خمس وثلاثين سنة، وبذلك فقد غطت فترتي حكم إدريس الأول والثاني.[٥٨] ويرى بعض الدارسين أن ضرب هذه النقود قد استمر بطريقة عادية حتى سنة ١٩٢هـ، أي التاريخ الذي استقر فيه إدريس الثاني بفاس.[٥٩] إضافة إلى ذلك؛ فإن استمرار ضرب النقود التي تعود لإدريس الأول، حتى بعد وفاته، يفسر بأنه بعد وفاته خلال الفترة التي تولى فيها راشد تسيير أمور البلاد استمر العمل بهذه النقود،[٦٠] وهو ما يظهر لنا منطقيًا باعتبار أن راشد سيسلم السلطة لإدريس الثاني بعد أن بلغ سن الحادية

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

عشر، وهذه المسألة يمكن أن تنسحب حتى على هذا الأخير خلال سنوات (١٨٣- ١٨٤- ١٨٥- ١٨٨هـ).

كما كشفت الحفريات خلال الفترة التي عرفت قيام دولة الأدارسة على بعض النقود التي تحمل أسماء شخصيات صعب تحديد هويتها، ولحل هذا المشكل طرح البعض إمكانية أن يكون هؤلاء مجرد عمال أوكلت لهم هذه المهمة.[٦١] غير أن هذا التفسير يبقى مستبعدًا لأن مسألة ضرب النقود هي في الغالب مرتبطة بالسيادة وتعتبر رمزًا للسلطة، اللهم إلا إذا كان الأدارسة في بداية التأسيس قد تركوا التعامل بهذه النقود لمدة محدودة، في انتظار إصدار عملة خاصة بهم.

ومن المشاكل الأخرى التي تطرحها هذه النقود الإدريسية، أي نقود إدريس الأول والثاني، ما يرتبط بنوع السيطرة التي كانت للأدارسة على تافيلالت حيث يوجد محرف تودغة الذي لم تكشف الحفريات به عن نقود بأسماء أبناء إدريس.[٦٢] من الافتراضات التي يمكن تقديمها في هذا الصدد أن الأمر قد يتعلق بنوع من التبعية السياسية، في حين أن التسيير كان موكولاً إلى حاكم محلي، وبالتالي سيظهر نوع من النزوع نحو الاستقلال، بمجرد ظهور بعض بوادر تراجع السلطة خاصةً بعد زوال ملك إدريس الأول والثاني.

خاتمة

لقد تحولت المدينة الرومانية التي ازدهرت خلال القرون الميلادية الثلاثة الأولى إلى مجال يضم عددًا من المقابر، وتم الاستقرار خلال فترة غير محددة في الجهة الغربية وراء ما سيعرف بسور المدينة المتأخر. عكس هذا التحول انقسام الموقع إلى شقين متناقضين؛ عالم للأموات في الجهة الشرقية، بعد أن ضل لعدة قرون يمثل مركز المدينة الرومانية، وعالم للأحياء في الجهة الغربية. ومع ذلك فإن المدينة لم تبق منحصرة وراء السور المتأخر بل إنها ستعرف خلال فترة لاحقة امتدادًا وتوسعًا فوق المجال الذي ضل مهجورًا حينًا من الدهر.

الهوامش:

(1) Y.THEBERT , J.L. BIGET , **L'Afrique après la disparition de la cité classique : cohérence et ruptures dans l'histoire maghrébine**, dans l'Afrique dans l'occident (1er siècle .Av.J.c. -4éme siècle Ap.J.), Actes du colloque organisé par l'école française de Rome sous le patronage de l'Institut National d'Archéologie et d'art de Tunis (Rome3-5 decembre1987, Rome 1990, p.576.

(٢) تفيد المعطيات النصية المتوفرة لدينا أن المدينة استقر بها المسلمون على الأقل خلال أربعة قرون، من دخول إدريس الأول إلى التاريخ الذي يقدمه سعيد الغرناطي بخصوص إخلاء المدينة.

(٣) إن آخر قطعة نقدية كشفت عنها حفريات البعثة المغربية الإنجليزية تعود لعهد يوسف بن تاشفين. أنظر: حسن ليمان، **معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية الإنجليزية بوليلي**، واقع البحث التاريخي والأثري حول المغرب القديم، أبحاث يوم دراسي من تنظيم الجمعية المغربية للبحث التاريخي الرباط، ١٨ ماي (مايو) ٢٠٠١، مجلة أمل، العدد ٢٧، ص.١٤٢.

(٤) عرفت وليلي في السنين الأخيرة حفريات تهم هذه المرحلة في إطار تعاون مغربي إنجليزي، إلا أن نتائج هذه الحفريات لا زالت لم تنشر.

(٥) لقد فسر البعض من الباحثين الانتقال إلى هذه الجهة بكون المدينة الجديدة قد تشكلت حول مركز جديد، مع الإقرار بصعوبة تحديده في الوضع الحالي، أنظر:

A. AKERRAZ, **Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis**, dans Genèse de la ville islamique enal-Andalus et au Maghreb occidental, Casa de Velazquez-csic, Madrid, 1998, p.304 note 29.

ربما قد تتمكن نتائج حفريات البعثة المغربية-الإنجليزية من تحديد نواته.

(6) M. EUZENNAT, **Rapport sur l'archéologie marocaine en 1957 et 1958**, « B.C.T.H.», 1959. 1960, Paris 1962, pp.45-61

(7) E. FREZOULS, **Quelques inscriptions nouvelles de Volubilis**, «C.R.A.I. », 1961, p.350

(8) R. THOUVENOT, **Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953**, « B .C.T.H.», 1954, p.48

(9) A. AKERRAZ, Recherches, cit., p.297.

(10) H. DELAMARTINIERE, **Souvenirs du Maroc**, Paris, 1912. p.316.

(11) N.BOUJIBAR- ELKHTIB, **L'archéologie marocaine en 1964-1965**, « B.A.M.», 6, 1966, p.544.

(12) Ibid.

(13) A.ELKHAYARI, **Les thermes extra– muros de Volubilis**, l'Africa Romana, Atti del X convegno di studio, (Sassari, 11-13 dicembre 1992), Sassari, 1994, pp.301-312,

(١٤) حسن ليمان، معطيات مرجع سابق، ص.١٣٩.

(١٥) نفسه، ص.١٤٣.

(16) A.ELKHAYARI, Les thermes extra muros, cit., p.307.

(17) N. BOUJIBAR-ELKHATIB, **L'archéologie marocaine en 1964-1965**, cit., p.544.

(18) Ibid.

(١٩) سبق لعمار أكراز أن أكد في مرحلة سابقة أن الأمر قد يتعلق ببناء روماني استمر وقتًا طويلاً بعد نهاية القرن الميلادي الثالث:

AKERRAZ (A), **Le Maroc du sud de Dioclétien aux Idrissides**, Thèse de 3éme cycle, Paris 1985. p.14.

(20) G.S. COLIN, **Monnaie de la période Idrisside trouvée à Volubilis**, «Hespéris. », 12, fasc. 11, 1936, pp.113-126.

(٢١) اعتبر بعض الباحثين أن اللقى التي وجدت في هذه المنشأة تغطي تاريخًا يمتد بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر:

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

E. LE NOIR, **Volubilis du bas-empire à l'époque islamique**, dans Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, IIème colloque international (Grenoble 5-9 avril 1983) Paris, p.426.

(22) A. ELKHAYARI, Les thermes extra-muros, cit., p.307

(٢٣) دفع العثور على عدد مهم من الشاهدات في هذا الحي ببعض الباحثين إلى افتراض إمكانية إقامة هذا الحي فوق مقبرة، وهناك مَن ذهب إلى إمكانية وجودها بالقرب من هذه البنايات، غير أن عدم العثور على آثار لها دفع البعض إلى القول بوجودها على طول السور، أنظر:

R.THOUVENOT, **Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953**,cit., p.48; E.FREZOULS, Quelques inscriptions nouvelles de Volubilis, cit., p.350.

(٢٤) عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون" العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني للطبع و النشر، الجزء الرابع ١٩٥٨ ، ص.٢٥.

(25) D. EUSTACHE, **Etudes sur la numismatique et l'histoire monétaire du Maroc**, I, corpus des dirhams Idrissides et contemporains, Rabat, 1970-1972, p.167 note 12

(26) M.PONSICH, **Lixus : Informations archéologiques**, « A.N.R.W. », II, 10, 2, 1982, p.835.

(٢٧) سبق **لبيرتي** أن أشار في هوامش حي قوس النصر، إلى وجود بنايات تعود للفترة الإسلامية، أنظر:

P. BERTHIER, **Essai sur l'histoire du massif de Moulay Idris**, Rabat, 1938, pp.40-44.

(٢٨) من المؤشرات التي اعتمدت في هذا التأريخ، هو أنه تم الكشف تحت هذا البناء وعلى عمق 1, 50 م عن مقبرة مسيحية، كما تم العثور في هذه الجهة على عدد من النقود تعود للفترة الإسلامية، يضاف إلى ذلك التشابه من حيث التقنية المستعملة في البناء مع السكن الموجود شمال منزل البيكار:

A. ICHKHAKH, **Le quartier de l'arc de triomphe, la rive nord du decumanus maximus** , Thèse pour l'obtention du diplôme de 3éme cycle des sciences de l'archéologie et du patrimoine, I.N.S.A.P., année2000-2001, pp.128-130.

(29) Ibid., pp. 212-213.

(30) G.ZEHNACKER, G HALLIER,, **Les premiers thermes de Volubilis et la maison à la citerne**, «MEFR », t .76, 1964, p.349.

(٣١) أزاحت الحفريات التراب قرب هذه الأكواخ عن عدد من القبور مغطاة ببلاطات منة حجر مسطح.

(32) A. AKERRAZ, **Recherches sur les niveaux islamiques de Volubilis**, dans Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, Casa de Velazquez-csic, Madrid, 1998, pp.295-304.

(33) E. LENOIR, **Volubilis du bas empire à l'époque islamique**, dans Histoire et Archéologie de l'Afrique du nord, IIème colloque international (Grenoble 5-9 avril 1983), Paris, pp. 425 - 442

(34) A. ICHKHAKH , Le quartier de l'arc de triomphe, cit.,p.20.

(35) Ibid . , p.21.

(36) A.AKERRAZ, Recherches, cit., p.297

(37) Ibid., pp. 302 303.

(٣٨) سبق لريموند توفنو أن أشار إلى وجود مقبرة صغيرة في هذا المنزل تعود لبداية العصر الوسيط:

R. THOUVENOT, **La Maison de l'Ephèbe**, « P.S.A.M., » 7, 1945, p.115.

(٣٩) حددت الدراسة التي عرفها هذا المنزل الاستقرار الإسلامي خلال المرحلة السابعة من تاريخه، كما أرخت بنفس الفترة للنقيشة التي سبق أن اعتبر ر. توفنو أنه وجدها في قبر.

أنظر: A. ICHKHAKH, Le quartier de l'arc de triomphe, cit. p.58.

(40) M. BEHEL, **Le Versant est de la ville ancienne de Volubilis**, Nouveau doctorat Paris IV, Sorbonne, 1993, p.266.

(41) Ibid., p.267

(٤٢) حسن ليمان، معطيات، مرجع سابق، ص.١٤١.

(٤٣) المرجع نفسه.

(44) A.AKERRAZ, Recherches, cit., p.302.

(٤٥) أزيح التراب عن عدد من القبور في بعض منشآت الحي الشمالي الشرقي والجنوبي.

(46) E.LENOIR, **Volubilis des Baquates aux Rabedie** : une histoire sans parole ?, « B.A.M. », 15,1983-1984, p.302.

(47) R. BOUZIDI, **Recherches archéologiques sur le quartier du Tumulus (Volubilis)**, Thèse pour l'obtention du diplôme de 3éme cycle des sciences de l'archéologie et du patrimoine, option archéologie préislamique année 2000-2001. p.89.

(٤٨) أقيم القبر الذي أزيح عنه التراب في الحي الجنوبي الشرقي، على الواجهة الغربية للوحدة السكنية II حسب ترقيم محمد البهل. مكنت الدراسة الأنثروبولوجية من تحديد عمر الميت بين ٢٤ و٤٠ سنة. وقد تم لحد الآن إحصاء ستة قبور أزيح التراب عن اثنين منها، أنظر:

H.LIMANE, A. CHERGUI, A.ICHKHAKH, **Découverte d'une tombe Islamique au quartier sud de Volubilis**, « N .A.P. », N0 1, Avril 1997, p.8.

H. LIMANE, A. ICHKHAKH, **Quelques données sur l'occupation Islamique à Volubilis**, Trad. MARTINA RIBE, dans Volubilis eine romische stadt in Marokko von der fruhzeit bis in di islamische periode, éd. Verlag philipp von zabern, Berlin, 2001

(٤٩) اكتشفت هذه المقبرة أولاً من طرف الباحث دورياك (Dauriac)، وقد نقب فيها الباحث عمار أكراز الذي أزاح التراب عن أربعة وعشرين قبرًا، أنظر:

A. AKERRAZ, Le Maroc, cit., p.131.

(٥٠) كشفت الحفريات إضافة إلى قبور منزل المقبرة الإسلامية عن عدد من القبور بجوار بعض منازل هذه الجهة وفي حمامات الشمال وفي الحي الجنوبي، فقد تم إزالة التراب في أقصى وحدة سكنية في هذا الحي عن أربعة قبور إسلامية:

A. OUMLIL, **Etude de l'architecture du quartier sud de Volubilis**, thèse de doctorat dactylographiée, Laval, 1989, p.108.

A. AKERRAZ , Recherches, cit., pp.298 et 299 note16.

(51) A. AKERRAZ, Le Maroc ,cit., p.130; Id., **Les rapports entre la Tingitane et la Césarienne à l'époque post-romaine**, « Africa romana » , Atti del XII convegno di studio, Olbia, 12-15 dicembre 1996, pp.1435-1439.

(52) A.ICHKHAKH, Le quartier de l'arc de triomphe, cit., p.26.

(53) H. LIMANE, A. ICHKHAKH, Quelques données, cit.

(54) A. AKERRAZ, Recherches , cit., pp.295-304

(55) M. EUZENNAT, **L'archéologie marocaine de 1958 à 1960**, « B.A.M. », 4, 1960, pp.523-564.

(56) A. AKERRAZ, Recherches, cit., p.299 note 16

(57) M. PONSICH , Lixus, cit., p. 835

(٥٨) تعود آخر النقود التي ضربت في وليلي لسنوات ١٩٩ و٢٠٩ هـ. ومع ذلك فمن المؤكد أن المدينة لم يتم هجرها فجأة بعد هذا التاريخ:

A.AKERRAZ , Recherches, cit., p.302.

(59) D. EUSTACHE, Etudes, cit., p.164 .

(60) G.S. COLIN, **Monnaies de la période Idrisside trouvées à Volubilis**,« Hespéris », 22, fasc 11, 1936, p.121

(61) Ibid., p.125.

(62) Ibid., p.122

دورية إلكترونية . محكمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449